البحوث والدراسات

القرآن في مواجهة الحضارة الغربية
بين النورسي ومحمد عبده

د. زياد خليل محمد الدغامين

من المؤكد أن للقرآن الكريم شأنا كبيرا في أية مواجهة حضارية مع الحضارات الأخرى سيكون؛ بسبب نجاحه المحقق في تمثيل البديل المعرفي، وقدرته على إقامة الحياة على منهج شمولي عادل، وإثباته عدم صلاحية المناهج والأنماط الحياتية في الفلسفات والمذاهب والأديان الأخرى؛ يشهد لذلك التجربة العملية التي خاضها القرآن في الواقع التاريخي.

وقد حاول المفكرون والمصلحون الإسلاميون على - مدار التاريخ - أن يحفظوا للقرآن مكانته في عملية المواجهة الحضارية على تفاوت بينهم في توظيف نصوص القرآن في هذه العملية. فأهل السنّة الذين يمثلون المنهج السلفي - لا الكلامي - كانوا أكثر الناس توظيفا لتلك النصوص، في حين نهج الكلاميون من معتزلة وأشاعرة طرائق عقلية ذهنية مجردة في عملية المواجهة، مجاراة للمنطق الفلسفي الدخيل على البيئة الفكرية الإسلامية. واتخذت عملية المواجهة - من بعد - أشكالا وأنماطا أخرى.

واليوم، أصبح وجود الأمة الإسلامية يواجه تحدّيا صعبا، وامتحانا مرّا، تفرضه عليها الفلسفة والحضارة الغربية بكل نظرياتها: الاقتصادية، والتربوية، والاجتماعية، والسياسية.

والسؤال المطروح هنا - وهو عقدة هذا البحث وقضيته - كيف يمكن التعامل مع هذه الحضارة؟ وستكون الإجابة من خلال استعراض مَنْهَجي مصلحين من

زعماء الإصلاح في العصر الحديث. وهما: الأستاذ الإمام محمد عبده المصري (١٨٤٩ - ١٩٠٥م). وبديع الزمان سعيد ميرزا النورسي الكردي التركي (١٨٧٣ - ١٩٦٠). ويحاول هذا البحث أيضا الإجابة على بعض التساؤلات بصورة غير مباشرة، مثل: كيف وظّف كل منهما القرآن الكريم في عملية المواجهة الحضارية؟ وما هي إيجابيات وسلبيات كل منهج؟ وهل هناك منهج معيّن يمكن إفرازه واقتفاء سننه في عملية الدفع الحضاري؟

وجه العلاقة بين النورسي ومحمد عبده.

التساؤل عن طبيعة العلاقة التي تربط بين الرجلين في كل من البيئتين التركية والمصرية، وبيان نقاط الالتقاء، وخطوط التوازي في فكر الرجلين: مما يخدم موضوع البحث، ويوضّح عملية المقارنة في اتخاذهم مواقفهم من الحضارة الغربية.

لا شك أن النورسي كان - بمقتضى اطلاعه الواسع على النهضة الفكرية التي رفع لواءها زعماء الإصلاح: الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا - قد تأثر بتلك النهضة التي تركت بصمات واضحة لا على منهج تفكير العلماء المعاصرين، بل على الحركات الإسلامية أيضا، لا في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي كله.

ولما توفي محمد عبده كان النورسي قد بلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما، وكان يمثل في ذلك الوقت سعيدا القديم(*)، وكانت شهرته ونبوغه قد طارا في الآفاق.

ومن الآثار التي تثبت اطّلاعه على فكر الأستاذ الإمام اهتمامه بتفسيره واعتماده عليه في بعض المواطن، فعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية

(*) هناك شخصيتان تمثلان فكر النورسي: شخصية سعيد القديم، ذلك السياسي الثائر، وشخصية سعيد الجديد، ذلك المربي الهادىء، ونقطة التحول أو الانقلاب كانت في سنة ١٩٢٦ ففيها انتقل النورسي ليمثل نمطا فكريا، ومنهجا إصلاحيا آخر.

(سورة البقرة: ٢٥) قال: أما «الصالحات» فمبهمة ومجملة. قال الشيخ محمد عبده المصري: الإطلاق هنا حوالة على الاشتهار، وتعارف الصالحات بين الناس. أقول - والقول للنورسي -: وكذا أطلقت اعتمادا على رأس السورة[١]. وهذا يعني أن الجزء الأول الذي يشمل سورة الفاتحة وبعض سورة البقرة كان في متناول النورسي، وهو الجزء الذي حدد فيه الأستاذ الإمام منهج النظر والتعامل مع القرآن الكريم من حيث النظر والتفسير.

وقد عدّ النورسي زعيمي الإصلاح: الأفغاني وعبده، من أسلافه الذين يسير على نهجهم في الدعوة إلى الاتحاد الإسلامي. ففي رسالته **«المحكمة العسكرية العرفية»** المنشورة سنة ١٩٠٨م، أي: قبل التحول إلى سعيد الجديد، وبمناسبة تأسيس «الاتحاد المحمّدي» سنة ١٩٠٩ الذي أعلن عنه في جامع «أياصوفيا» الكبير، كان النورسي قد ذكر أنّه ألقى خطبة مهمّة هناك. فاتّهمته المحكمة بالانضمام إلى ذلك الاتحاد، فأجاب بكل جرأة واعتزاز: نعم!

وكان السلطان سليم قد دعا إلى الاتحاد، وقال: إن مغبة الاختلاف والتفرقة يقلقاني حتى في قبري، فسلاحنا في دفع صولة الأعداء إنما هو الاتحاد، إن لم تتحد الأمّة فإنّي أتحرّق أسى.

ذكر النورسي هذا الكلام، وذكر أنه نفسه قد بايع السلطان سليم وقَبِلَ فكره في ذلك، ولئن بايعه فإن أسلافه الشرقيين قد بايعوه، قال: فأسلافي في هذه المسألة هم: الشيخ جمال الدين الأفغاني، ومفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده[٢]. مما يدل على وعي الرجل بما كان ينادي به أئمة الإصلاح في مصر.

وعلى الرغم من إدراك محمد عبده للمخاطر الناجمة عن النهج السياسي في

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي؛ إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٩٤)، دار سوزلر، اسطنبول. ص: ١٩٨

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي؛ صيقل الإسلام، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٩٥)، دار سوزلر، اسطنبول. ص: ٤٤٦

الإصلاح، وتحوّله عنه في وقت مبكر من صحبته للأفغاني، إلا أن هذا النهج السياسي ظل مؤثرا في فكر النورسي، ثم بدا له - بعد ذلك - ما بدا للأستاذ الإمام، فتحول إلى الإصلاح التربوي والاجتماعي (سنة ١٩٢٦) واصفا نفسه بسعيد الجديد. وسرّ هذا التأخير في التحول إلى الإصلاح التربوي يرجع في الغالب إلى الأحوال والأوضاع السائدة - في تركيا - التي تطلبت نوعا من امتطاء هذا النهج، حفاظا على الإسلام ومكتسباته. لكن هذا النهج لم يعد صالحا، بل عانى من ضيق وحرج اضطّراه إلى الاعتزال حتى حين، خاصّة بعد سقوط الخلافة الإسلامية هناك.

ومن وجهات الاتفاق بين المصلحين محمد عبده والنورسي: اشتراك كل منهما في أعمال جهادية. فقد اشترك الأول في الثورة العرابية ضد الحكومة المصرية التي ترعاها بريطانيا، بل ضد بريطانيا نفسها، ودعا بقوّة وعزيمة إلى طرد الإنجليز من مصر، ثم لجأ إلى الإصلاح الديني بوصفه السلاح الفعال في مقاومة الغزو الفكري واللاديني للمجتمع الإسلامي. واشترك الثاني في الحرب العالمية الأولى ضد روسيا، ثم تحول إلى الإصلاح التربوي والاجتماعي.

إن منهج النورسي تحدّد في إطار تنوير الأذهان وإنقاذ الإيمان، والميل إلى المنحى التربوي، وتزكية النفس، في تأطيره عملية الإصلاح بمجموع تلاميذه الذي يبدون مثل خلية النحل أو النمل في عمل دؤوب ونشاط متجدّد. بينما تحدّد اتجاه محمد عبده بإصلاح منهج الفهم والفكر وتجديد معاني الدين، وتخليصه من كل ما علق به من سواد الأفهام، وخرافات البدع والأساطير. وتوضيح ذلك:

أن الأستاذ الإمام قد نهج سبيلا في الإصلاح كان له أثر واضح لا على جماعة من العلماء والمثقفين فحسب، بل على حركات إسلامية بأكملها، والتفت إلى المشكلة على صعيدها الداخلي، ورأى أن نقطة الضعف التي تعاني منها الأمّة هي الفهم الصحيح للدين المبني على الاعتقاد الحقّ. فتوجّهت جهوده الإصلاحية إلى قضايا عديدة في الفكر الإسلامي، فدعا إلى الاجتهاد، ونبذ

التقليد والمقلدين. وثار على الآثار السيئة للفكر الصوفي، والبدع والخرافات التي دخلت عن طريقهم، أو عن طريق الإسرائيليات وغيرها إلى تعاليم الدين الحنيف. وتوجّهت جهوده إلى إصلاح التربية الإسلامية، وإصلاح القضاء.

وهو نهج يستطيع القاريء أن يقرر أنه آخر شاطيء رست فيه سفينة الإصلاح بقيادة الأستاذ الإمام. وفوق ذلك كله انتهاجه سبيل التوفيق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية عموما.

ولقد توجّه الأستاذ الإمام إلى القرآن الكريم، يفسره على طريقة روحية عمرانية، تظهر أن القرآن الحكيم ينبوع السعادة الدينية والمدنية في كل عصر[٣]، والتفسير هو أهم ما يحتاج إليه؛ ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الأسرار والحكمة، فالقرآن هو سرّ نجاح المسلمين، ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا إرجاعهم إليه، وما لم تقرع صيحته أعماق قلوبهم، وتزلزل هزته رواسي طباعهم، فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم[٤].

أمّا النورسي فعلى الرغم من النتيجة التي توصّل إليها مع الأستاذ الإمام نفسها إلا أنه اختلف عنه من حيث توجيهه الأنظار إلى الصعيد الخارجي، المتمثل في الاستعمار الجديد، الذي أخذ على عاتقه هدم الفكرة الدينية الإسلامية، وهي العقيدة. فكانت قضيته هي إنقاذ العقيدة، وإنقاذ إيمان جمهور الناس من ذلك الخطر. ولم تكن قضايا الفكر والاجتهاد والتقليد والمنهج لتشغل بال النورسي، ولعلّ البيئة لم تكن تسمح له بإثارة مثل هذه القضايا. ولكنه - مع ذلك - أدرك ما فات الأستاذ الإمام حيث بنى تنظيما يمثل الوسيلة العملية للإصلاح الاجتماعي، ويحافظ - إلى درجة كبيرة - على بقاء روح الإيمان في نفوس الناس. لقد تفرغ لهذا العمل ونذر نفسه له بوسيلتين:

أولاهما: عزوفه عن الزواج طيلة حياته.

---

(٣) محمد رشيد رضا؛ مجلة المنار (بلا تاريخ)، مطبعة المنار، مصر. ج٦، ص: ١٩٨

(٤) نفسه ج: ٩، ص: ٨٩٨

وثانيهما: عدم تقلّده أية مناصب إدارية تشرف عليها الدولة، بخلاف الأستاذ الإمام الذي تقلّد منصبا في مجلس الشورى، وتقلّد كذلك منصب الإفتاء في الديار المصرية.

أقول: لقد رافق بناء الفكر النوري بناء آخر لتنظيم نوري، عملا معا على الوقوف في وجه الهجمة الشرسة على تعاليم هذا الدين. فآتى ثماره، وحقّق أهدافه. في حين أن الأستاذ الإمام استخدم إمكانات الدولة المتاحة، لتكون منابر ووسائل لعملية الإصلاح، فظلّ تفكيره متداولا بين جمهور من المثقفين على صورة احتفظت لنفسها في - الأعم الأغلب - بالبقاء في دائرة النظر.

هذه القضية هي من المفارقات البيئية، وأولويات العمل على حسب الأحوال السائدة في كل من مصر وتركيا. ولم يكن النورسي ثائرا على المنهج التقليدي بالقدر الذي يوصله إلى موازاة خط الأستاذ الإمام. ولعلّ السرّ في ذلك يرجع إلى أن النورسي لم تتح له فرصة في التعليم في المعاهد الشرعية الرسمية، وحاول قدر الإمكان أن لا يثير مع علماء السلطة معارك جانبية. هذا بالإضافة إلى شيء من نزعة عاطفية - تجاه ذلك المنهج - يُعدّ التخلّي عنها من الضرورات الملحّة للنقد العلمي الموضوعي البصير، وينبغي أن يصل في البحث العلمي إلى حدّ المنهج الذي لا يصح تجاوزه؛ ليتم التواصل الفكري والحضاري بين أجيال هذه الأمّة على أسس صحيحة، وليسهم كل جيل بدور فعال في بناء المنظومة الفكرية والمعرفية لهذه الأمّة.

ولسنا - هنا - بصدد إعداد مقارنة شاملة متكاملة بين منهج الأستاذ الإمام ومنهج النورسي في الإصلاح، فإن ذلك حريّ ببحث وحده. لكن بحسبنا هنا أن نلفت النظر إلى قضية جزئية محدودة، تتمثل في بيان مدى اعتماد كل منهما على القرآن في مواجهة الحضارة الغربية، فكل منهما انطلق في ضوء مقررات القرآن ومعطياته في المواجهة. غير أن هذا الموقف العام بحاجة إلى تفصيل أكثر، ولعل أهم ما يساعد على بيان هذا الموقف: البحث في بعض القضايا المهمّة في مجال: العقيدة، والسياسة، والفلسفة، والتربية والتعليم، والاقتصاد.

أولا - إمكانية الحوار العقائدي:

لا يخرج المسلمون في علمهم بعقيدة أهل الكتاب - من يهود ونصارى - عن حدود ما بيّنه القرآن الكريم الذي أثبت تحريف هذين الكتابين، وهذا متفق عليه عند المسلمين جميعا، ومن خلال بيان منهج كل من الرجلين نرى النورسي أكثر تفصيلا في بيان هذا الموقف، وتوضيح ذلك:

إن المشكل في موقف أبناء الغرب عموما من الإسلام هو جهل أكثر منه قناعات راسخة، ويميّز النورسي هنا بين مفكري الغرب الذي يرسمون صورة غير حقيقية عن الإسلام تجافي الأمانة والموضوعية، وبين عامّة الناس الذين علقت هذه الصورة في أذهانهم، ومن المفترض أن يحاول أهل الغيرة من العلماء بالوسائل المتاحة أن يرسموا صورة صادقة عن الإسلام، وهذا ما سلكه النورسي نفسه، فقد رأى أن ما من وسيلة أقوى من بيان إعجاز القرآن، وبيان هداياته الشاملة في عالم المعرفة، وعالم الإنسان، وشؤون الحياة وميادينها، فإذا ما فتح باب الحوار فهذه أول قضية تستحقّ الطرح. ويتضح أن النورسي دخل إلى الحوار أو طلبه بروح التحدّي.

يقول: إن هذا العصر قد اغترّ بنفسه، وأصمّ أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب - منهم خاصّة - أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ «يا أهل الكتاب... يا أهل الكتاب» كأن هذا الخطاب موجّه إلى هذا العصر بالذات؛ إذ أن لفظ «أهل الكتاب» يتضمن أهل الثقافة الحديثة أيضا، فالقرآن يطلق نداءه يدوّي في أجواء الآفاق ويملأ الأرض والسبع الطباق بكل شدّة وقوّة، فيقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ (سورة آل عمران: ٦٤)[٥]. وهي الآية نفسها التي استدل بها الأستاذ الإمام على التقريب بين الأديان[٦].

---

(٥) بديع الزمان سعيد النورسي؛ الكلمات، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٢)، دار سوزلر، اسطنبول. ص: ٤٧١ - ٤٧٢

(٦) محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده (١٩٩٣)، دار الشروق، بيروت. ج:٣، ص ٥٦٢

ويشبه صنيع النورسي في دعوته العلماء وأهل المدارس الحديثة في اسطنبول إلى مناظرة علماء الكنيسة ومناقشتهم[٧] على أسس القرآن، صنيع بعض العلماء السابقين[*] الذين دارت بينهم وبين علماء أهل الكتاب مناظرات ومجادلات. وهو بهذا يدعو إلى إقامة علم جدل أو علم كلام جديد، يتجاوز سلبيات علم الكلام القديم في قضية جوهرية، وهي التوجّه إلى القرآن الكريم ابتداء بوصفه المهيمن في كل صراع معرفي أو فكري في ميادين التربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة.

أما الأستاذ الإمام فقد كان صنيعه أوسع أفقا، وأعمق منطقا؛ فقد آثر أن يرى الغرب الإسلام من الداخل في مبادئه السّمحة، وقيمه السامية، ومعاملته الإنسانية، وحبّه الخير لبني الإنسان، أما تلك المجادلات النظرية فسوف تعيق الفكر الإسلامي عن النفاذ إلى المجتمعات الأوروبية.

وما كتبه علماء المسلمين ردّا على اليهود والنصارى لم يقرأه إلا المثقفون من أبناء المسلمين أنفسهم؛ لذلك سعى الأستاذ الإمام إلى تأسيس جمعية أطلق عليها «جمعية التقريب بين الأديان»، لتأصيل مبدأ التسامح الديني الذي أوجده الإسلام ورعاه، وطبقه في تعامله مع اليهود والنصارى بصورة لا تجد لها في تاريخ البشرية مثيلا. لقد كان يهدف من دعوته تلك إلى التقريب بين الأديان بوصفها وسيلة وطريقا ميسرا للدعوة إلى الإسلام[٨].

ولا ينبغي أن يُفهم أن دعوته للتقريب بين الإسلام والنصرانية مثلا، هي دعوة للتقريب بين أصول العقيدة في كل من الديانتين[٩]، بل هي جمعية هدفت إلى

---

(٧) بديع الزمان سعيد النورسي؛ اللمعات، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٣)، دار سوزلر، اسطنبول. ص: ٢٦٢

(*) مثل: القرافي، وأبي الوليد الباجي، وابن تيمية، وابن القيّم، وغيرهم، ومن أهم هذه الجهود - حديثا - صنيع رحمة الله خليل الرحمن الهندي، صاحب كتاب «إظهار الحق».

(٨) رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج١، ص: ٨١٩ - ٨٢٩.

(٩) يشير الأستاذ الإمام إلى أن النصرانية انقلبت إلى وثنية من عهد قسطنطين، أي: بعد المسيح بثلاثة قرون. انظر: عمارة، الأعمال الكاملة، ج: ٣، ص: ٥٦٠

إزالة الشقاق من بين أصحاب الأديان، والتخفيف من وطأة أوروبا على الشرق، وخصوصا على المسلمين، وتعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام وحقيته من أقرب طريق. وكان الأستاذ الإمام صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها[١٠].

وما دام أن الغرب يجهل الإسلام أو يتجاهله فلا سبيل إلى توضيح حقيقته - في نظر الأستاذ الإمام - إلا عبر هذه المؤسسات الهادفة، وعلى الرغم من نجاح هذه الفكرة إلا أن الجمعية التي قامت عليها قد أجهضت، كما أجهضت مجلة العروة الوثقى. وكاد الإنجليز لتلك الجمعية فوأدوها في مهدها، ولم تحقق أهدافها؛ لأن الدعوة إلى التقريب أو الحوار بين الأديان لم تكن صادرة عن مؤسسات الغرب الكنسية، ولا تحقق أهدافه وسياساته.

أما اليوم فقد تعالت أصوات ونداءات من تلك المؤسسات تدعو إلى حوار الأديان، ولهم في ذلك أهداف واضحة؛ فقد صدر سنة ١٩٨٤ وثيقة «الحوار والتبشير» نشرتها سكرتارية غير المسلمين التابعة للفاتيكان، تبيّن فيها أهداف وغايات ذلك الحوار الذي تقوده الكنيسة وتدير عجلته، وتدعو جاهدة إليه، الأمر الذي يدل على أن الكنيسة أصبحت تطور في أساليبها ووسائلها، بل وتعيد النظر في منهجية تنصير الآخرين. ومن نصوصها:

«إن الكنيسة تشعر أنها مطالبة بالحوار بصورة رئيسة بسبب إيمانها، ومن واجب الكنيسة أن تكشف كل الخير الذي أودعه الأب في الخلق، وفي التاريخ، وأن تسلط النور عليه، لتسمح له بالكمال، وهذا ليس فقط للاحتفال بعظمة الله في الطقوس الدينية، بل، وكذلك لتعميم هدايا الأب على كل البشرية».

«وتقول: إن الحوار قبل كل شيء هو أسلوب للتحرك. والحوار هو الأسلوب المعتاد والضروري لكل نوع من أنواع التبشير المسيحي»[١١].

---

(١٠) رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج١، ص: ٧١٩ - ٨٢٠ وانظر: عمارة الأعمال الكاملة، ج١، ص: ٨٦٩ - ٧٠.

(١١) ظفر الإسلام خان؛ نظرة على ظاهرة الحوار المسيحي الإسلامي، مقالة نشرتها صحيفة الهلال الدولي، تحرير كليم صديقي، ١٦ - ١٩٨٩/١١/٣٠، العدد الرابع، ص: ٩

أضف إلى هذا، وقوف الأستاذ الإمام بالمرصاد لكل نفثة استشراقية، لقد كان شديد المتابعة لما تنشره الصحف والمجلات، وسجّل له التاريخ ردودا قوية على وزير خارجية فرنسا «المسيو هانوتو» في مقالة نشرها عن الإسلام، هدفت إلى إذكاء نيران العداوة في قلوب الفرنسيين، بإثارة عزائمهم إلى حرب المسلمين، وليكون للأمّة الفرنسية مثل ذلك الراهب الذي أشعل الحروب الصليبية الأولى»[١٢].

وقد حاول «هانوتو» في مقارنته بين الإسلام والمسيحية جاهدا أن يبيّن أن عقيدة المسيحيين منحت الإنسان حرية مكنته من تحقيق النهضة. بينما عقيدة المسلمين، وعقيدة القضاء والقدر التي تتبدّى من خلالها سلبية المسلمين في التعامل مع الأحداث - هي السبب في تأخرهم، لقد ردّ الأستاذ الإمام عليه ووضّح له الجوانب الإيجابية في هذه العقيدة[١٣].

ومن القضايا الخطيرة التي ردّ فيها على الطاعنين في الإسلام قولهم:

إن طبيعة الإسلام غير متسامحة مع العلم، بينما النصرانية متسامحة إلى أبعد حدّ، وفضلا عن أن هذه مغالطة ومقولة ظاهرة البطلان، إلا أن الأستاذ الإمام يأخذها مأخذ الجدّ، ويردّ بها على المستشرق رينان ردّا مقنعا[١٤].

وثبوت تحريف التوراة والإنجيل كان وسيلة مهمّة لدى الأستاذ الإمام، لإثبات مفارقاتها الأساسية لهدي القرآن، ومن ثمّ إمكانية النهضة في ضوء الهداية القرآنية؛ لأن في الوقت الذي حاربت فيه النصرانية العلم والعلماء، احتضنهم الإسلام ورعاهم، وأحسن مثواهم، وجعل في طلبهم العلوم قربة إلى الله وطاعة.

---

(١٢) محمد عبده؛ الإسلام بين العلم والمدنية (بلا تاريخ)، الهيئة المصرية للكتاب، مصر. ص: ٥٢. وانظر تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ٤١٥ - ٤٣٢

(١٣) تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ٢٦١

(١٤) عبده، الإسلام بين العلم والمدنية، ص: ١٤٥، ١٧٣ - ١٨٤، وانظر: رضا، مجلة المنار، ج٤، ص: ٤٥٢

التسامح الديني

لقد لفت الأستاذ الإمام نظر أوروبا إلى مبدأ التسامح الديني الذي قرره القرآن الكريم، وطبقه المسلمون أروع تطبيق في تعاملهم مع غيرهم، ولم يكن للتعصب الديني مدخل إلى قلوبهم، وإن وجد فلا يمكن أن يقاس بالتعصب المسيحي، ويقول: إن الإفرنج أشدّ تعصبا من المسلمين على دينهم. وإنهم قد أفرطوا في معاملة المسلمين والكيد لهم، وإن الرجل منهم يبلغ أعلى درجات الحرية كغلادستون وأضرابه -، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب الذي أشعل الحروب الصليبية، بل لا ترى روحه إلا نسخة من روحه(١٥).

ونخلص من هذا إلى أن إمكانية الحوار العقائدي بين المسلمين وغيرهم ممكنة لدى الرجلين، وبينما يسير النورسي الذي يغلب عليه روح التحدّي إلى المناظرات بوصفها أسهل وسيلة لإثبات فشل الخصم وتحقيق هزيمته، نجد الأستاذ الإمام يخترق الحاجز النفسي، ويدخل إلى قلوب غير المسلمين، شارحا لهم دين الإسلام وطبيعته بصورة يراها هي المثلى.

ثانيا - في مجال السياسة:

لقد بدأت مواقف زعماء الإصلاح وروّاد الفكر الإسلامي في العصر الحديث تظهر من الغرب حين بدأ اتصال الغرب بالعالم الإسلامي، ذلك الاتصال وحيد الاتجاه، إذ لم يحمل اتصال المسلمين بالغرب هذه الأبعاد التي حملها اتصال الغرب بديار الإسلام: من عملية استعباد شاملة، وطمس لكرامة الإنسان المسلم وإنسانيته، وتشويها لعقيدته ومعالم شريعته، وسرقة لموارده وثرواته جهارا نهارا، بالبطش والقوّة، والخداع والتضليل. ولقد تجلّت هذه المواقف في

---

(١٥) تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ٢٥٧ - ٢٥٨، وانظر: محمد رشيد رضا؛ تفسير المنار (١٩٧٣)، دار الفكر، بيروت، ج٢، ص:١٠٣، ج٤، ص: ٨٩، وانظر: عبده، الإسلام بين العلم والمدنية، ص: ١٨٧ - ١٨٨.

ظل الاحتلال والهجمة الغربية على العالم الإسلامي. إنها مواقف أفرزتها طبيعة الصراع، والنزعة الغربية العدوانية التي لولاها لظل المسلمون وغيرهم يعيشون في أمن ووئام.

لقد بدأ الموقف الإسلامي يتجلّى من الغرب في العصر الحديث على يد الأفغاني الذي يعدّ أول من شكل انتفاضة الشرق ضد الغرب في المجال السياسي، وطالب الشعوب الإسلامية كافّة أن تعمل جاهدة لمناهضة سلطانه الاستبدادي الظالم. ولقد كان في دعوته بعث للفكر الإسلامي، والثقافة الإسلامية، لمواجهة الخطر الغربي(١٦).

أما الأستاذ محمد عبده فقد دخل في صراع مرير مع السلطة الحاكمة التي تخضع لسيطرة الإنجليز في مصر، واستخدم مجلة العروة الوثقى للتحريض على الثورة ضدهم، بسبب تدخلاتهم الصارخة في شؤون مصر والجامع الأزهر(١٧). بل كانت مجلة العروة الوثقى المنبر الصادق في توجيه الأمّة ضد عدوها والدعوة إلى استقلالها، ليس بعاطفة، ولكن بفكر ونقد علمي رصين.

إن الحملة العنيفة التي شنها الغرب على ديار الإسلام وُوجهت من قبل الأستاذ الإمام - فيما بعد - بنفس طويل، وصبر وأناة، وتفكر في كيفية الإصلاح، وعبّر عن هذا المعنى بقوله: «إن العمل لإخراج الإنجليز من مصر عمل كبير جدّا، ولا بدّ في الوصول إلى الغاية منه من السير في الجهاد على منهاج الحكمة، والدأب على العمل الطويل، ولو لعدّة قرون، لا إنه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس، والكتابة في الجرائد(١٨)».

وهو كلام مبني على ضوء هداية القرآن في دعوته إلى الصلاح والإصلاح بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١٦) أحمد عبدالرزاق؛ فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي (١٩٩٥)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة. ج١، ص: ٩٣.

(١٧) تاريخ الأستاذ الإمام، ج١، ص: ٣٣٦، ٣٤٠

(١٨) انظر: عمارة، الأعمال الكاملة، ج١، ص: ٨١٤ - ٨١٥

بينما وُوجهت هذه الحملة عند النورسي بثورة عارمة بصّرت الناس بالدين، وكشفت عن الوجه الحقيقي لهذه الحضارة، ودعت الناس إلى الاعتصام بالعقيدة. ولقد امتاز بحدّة قوية، ولهجة صادقة. فبعد دخول الجيوش الاستعمارية اسطنبول، أحس أن طعنة كبيرة وجّهت إلى العالم الإسلامي، ولذلك فقد شمّر عن ساعد الجدّ، فبدأ بتأليف كتاب سمّاه «الخطوات الست»، وأخذ ينشره بمساعدة أتباعه وأصدقائه وطلابه سرّا بين الناس. وقد هاجم الإنجليز والمستعمرين بشدّة ودعا إلى الجهاد ضدّهم، وحارب اليأس الذي استولى على كثير من الناس.

وحين قامت حركة المقاومة ضد المحتلين في الأناضول أصدر مع مائة واثني عشر مفتيا وعالما فتوى بتأييد الحركة، ولشهرته وجهاده ضد أعداء الإسلام دعته حكومة أنقرة - حكومة مصطفى كمال - عدّة مرات، وحاولت استمالته، إلا أنه رفض الحكومة كاملة بعدما رأى تهاونها في شأن الدين[١٩].

ولقد خاطب مجلس المبعوثان «النواب» ذاكرا أنه على الرغم من تمكّن عالم الكفر في الإغارة على العالم الإسلامي، إلا أنه لم يتغلب عليه دينيا، مع جميع إمكاناته وقدراته ووسائله الحضارية، وفلسفته وعلمه ومبشّريه، فبقيت جميع الفرق الضالّة في الداخل أقلية محكومة، وعليه فلن يتمكن تيار بدعي مترشح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبية أن يجد سبيلا إلى صدر العالم الإسلامي[٢٠].

ولقد حرّض في خطابه هذا المجلس على الوقوف في وجه الحضارة الأوروبية، والاحتلال الإنجليزي، والالتزام بالإسلام، مبيّنا أن القيام بعمل إيجابي بنّاء مع التهاون في الدين أمر لا يمكن أن يتمّ[٢١].

---

(١٩) انظر محسن عبدالحميد؛ النورسي متكلم العصر الحديث (بلا تاريخ) سوزلر للنشر، مصر. ص: ٢٣ نقلا عن سيرة ذاتية.

(٢٠) بديع الزمان النورسي، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٨٨)، مطبعة الزهراء، الموصل. ص: ١٩٧ - ١٩٨

(٢١) انظر نص الخطاب كاملا في: المثنوي، ص: ١٩٦ - ٢٠٠

لقد كان النورسي أشدّ حماسا لبث روح العداء ضد الاستعباد والاستبداد الأوروبي عامّة، بخلاف النهج الذي سلكه الأستاذ الإمام؛ وذلك أن النهج السياسي في مصر حاول التوفيق بين مصالح الزعماء الوطنيين ومصالح المستعمرين المهيمنين على مقاليد السلطة المصرية، ولكن النهج السياسي التركي مثّل تيارا تغريبيا جارفا يهدف إلى إعادة تركيا إلى الحظيرة الأوروبية، بل جعلها بابا لتصدير الثقافة الأوروبية إلى الشعوب الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي سابقا.

هذا الموقف لا يتجلى بوضوح إلا عند العلماء الواقعيين دون أن يكون بينهم نوع من الاتفاق أو التنسيق. فالنورسي في اتخاذه مثل هذا الموقف ليس بالضرورة أن يكون متأثرا بالمصلحين الكبيرين الأفغاني وعبده؛ لأن الحرية مركوزة في فطرة المخلوقات جميعا، والظلم مهما كان نوعه تأنف منه النفوس الأبية، ونفس أعزها الله بالإسلام لا تذل لحكومة مستعبدة، لذا فإن سلطان الأجنبي مرفوض بكل صوره وأنواعه عند زعماء الإصلاح وروّاد الفكر الإسلامي. وقد كانت الدعوة التي أطلقها زعماء الإصلاح إلى التحرر من الهيمنة الأجنبية قد ملأت الآفاق، وعمّت أرجاء العالم الإسلامي، لا خلاف بينهم في ذلك.

لقد تجلت القضية السياسية في نظر الأستاذ الإمام بكل وضوح عن قناعة تامّة بأن المسلمين قادرون على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، فلا مجال لوجود سلطة أو وصاية أجنبية عليهم، وهي عين قناعة بديع الزمان النورسي، لكن الأمل قد انعدم عندهما بتحقيق الاستقلال والنهضة، فاتجهت جهودهما إلى الاصلاح الاجتماعي والتربوي

ثالثا - في مجال الفلسفة:

تمثل الفلسفة الغربية المعين الفكري والأخلاقي والسلوكي الذي يستمد منه الإنسان الغربي مقرراته المعرفية، ويبني عليه نظام حياته كله: من سياسة واقتصاد، وتربية، وأخلاق، وسلوك وقيم. ويمثل هذا المعين خليطا غير

منسجم من الأفكار المتضادّة، والآراء المضطربة حول: الله الخالق، والإنسان، والكون، والحياة. وأهم ما يميزه: تلك الفوضى التي تخلخل بنيان الإنسان ووحدته الشاملة المتناسقة.

لقد سعى الغرب إلى تصدير هذه الفلسفة بكل أشكالها وألوانها إلى البيئة الإسلامية عن قصد، وسبق تخطيط وترصد؛ ليهدم بذلك الفكرة الدينية الإسلامية، وليجعل المسلمين تبعا ذليلا لهذه الفلسفة وسلطانها المادي والمعنوي. ولذلك وقف النورسي بالمرصاد لهذه الفلسفة، وأطال في تحذيره أبناء بلاده من تقليد أوروبا التي شوهت الحقائق، وكادت لأبناء هذا الدين. فقال:

«يا أوروبا! اعلمي جيدا أنك أخذت بيمينك الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة، ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شُلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك، وستكون.

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر، وتبث الجحود، تُرى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه، وفي وجدانه، وفي عقله، وفي قلبه، بمصائب هائلة!!

يا أوروبا، التي نأيت عن النصرانية، وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة! لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له؛ إذ يهوي بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاهيك الجذابة - التي تدفع إلى إبطال الحسّ، وتخدير الشعور مؤقتا، - وكمالياتك المزخرفة، وأهواؤك المنوّمة، فتعسا لك ولدوائك الذي يكون هو القاضي عليك[٢٢].

---

(٢٢) النورسي، اللمعات، ص: ١٨٣ - ١٨٤، ١٧٧، وانظر: النورسي، المثنوي، ص: ٢٦٨ - ٢٦٩ تبدو حدّة النورسي القوية واضحة في خطابه لأوروبا، وهي حدّة لم تنبع من فراغ، بل كان هناك ما يغذّيها ويسوّغها، وهي محاولة من ناحية أخرى تعكس مدى وطأة أوروبا على تركيا في تلك الفترة. وهي - من ناحية ثالثة - محاولة لإقامة حصانة تقي المسلمين سهام هذه الحضارة.

فإذا ثبت عجز أوروبا ومدنيتها عن تحقيق السعادة للإنسان قدّم النورسي البديل القرآني، لتحقيق أهداف أبعد وأعمق وأشمل من ذلك، ثم يدعو أوروبا ويلفت نظرها إلى طريق القرآن وهدايته والحياة التي يقيمها على أسس العدالة الربانية، والتكريم الإلهي، فمن اهتدى به فقد سعد في الدارين، ويمضي على صورة لطيفة بلا حزن ولا كدر على ما فات منه، وبلا خوف ولا وجل مما سيأتي عليه، حتى تنطبق عليه الآية الكريمة: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٢)[٢٣].

ويبدو أن النورسي قد طرح البديل القرآني والمسلمون خارجون من معركة خاسرة؛ ضُربت فيها وحدة الأمّة، وسقطت خلافتها، وتفرّقت كلمتها، وفقدوا زمام القدرة على توجيه السياسات المحلية، فضلا عن العالمية! فطرح البديل القرآني أمر يختلف عن الدعوة إلى القرآن والإسلام، وقد جاء في وقت لا يمثل فيه المسلمون حقيقة الإسلام، فضلا عن معاناتهم من أزمات يعجزون بسببها عن قيادة زمام البشرية. وإذا كان ذلك كذلك، فإن العمل لبناء النفس المسلمة والارتقاء بها - إيمانيا - ومعرفيا - ضرورة تسبق طرح البديل، وحتى نتمكن من طرح أنفسنا بديلا حضاريا لقيادة مركب البشرية يلزمنا - بوصفنا خير أمة أخرجت للناس - تحقيق تفوّق علمي ومعرفي واقتصادي، وتكافل اجتماعي يعيد للأمة وحدتها وقوتها، إن التفوق في ذلك كله سبيل أمثل، يمنحنا الحقّ في أن نكون البديل الحضاري.

لقد أشكل علي النورسي تحديد الوقت الذي يمكن أن يمثل فيه المسلمون البديل الحضاري، وظن أن النتيجة النظرية ستحسم المعركة لصالح الموقف الإسلامي، نعم إننا نتفق معه على هزيمة الفلسفة الحديثة أمام إعجاز القرآن شرّ هزيمة، وأن هذه الفلسفة قد تسترت خلف منتجات برّاقة أخفت وراءها جميع عيوبها، لكن هل انتهت المواجهة بهذه الهزيمة؟ كلاّ.

---

(٢٣) نفسه، ص: ١٧٨ - ١٧٩

ما من شك في عجز النهج الفلسفي الغربي عن قياد زمام الحياة؛ بسبب ابتعاده عن الدين، ولقد ثبت استقراء - كما يقول النورسي - أن هناك تيارين وسلسلتين للأفكار يجريان عبر الأزمنة والعصور: سلسلة النبوة والدين، وسلسلة الفلسفة والحكمة.

فمتى ما كانتا متحدتين استجارت الفلسفة بالدين، وانقادت إليه، وأصبحت في طاعته، ومتى ما انفصلا وافترقا احتشد النور كله في سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور كلها في سلسلة الحكمة والفلسفة.

ويقرر النورسي - كذلك - أن علم أولئك الفلاسفة ليس علما، بل جهل. وأن حكمتهم سخافة، وخالية من الحكمة[٢٤].

وإذا ما اعتمد علماء الإسلام على الفلسفة في الدفاع عن الإسلام فإنهم لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقة للإسلام؛ إذ يُطَعّمون شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، وكأنهم بهذا يقوّون الإسلام.

والظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليل، وفيه شيء من التهوين لشأن الإسلام. إن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعمق أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها، فهيهات هيهات لدساتير الفلسفة أن ترقى إلى حقائق القرآن[٢٥].

إن الفلسفة عاجزة عن الدفاع عن حقائق القرآن، كما عجز علماء الكلام - كالمعتزلة سابقا - عن الدفاع عنها، وذلك لترجيحهم العقل على النقل. وعجزوا - كذلك - عن توضيح ما تفيده عشر آيات من القرآن، وتثبته إثباتا قاطعا بما يورث القناعة والاطمئنان؛ وذلك أنهم يحفرون عيونا في سفوح جبال بعيدة، ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب. أي: بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة

---

(٢٤) انظر: النورسي، الكلمات، ص: ٦٣٩، ٦٥٧، وانظر: الشعاعات، ص: ٦٥٢

(٢٥) النورسي؛ المكتوبات ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٢) دار سوزلر، اسطنبول. ص: ٥٦٩ - ٥٧٠.

الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة، في حين أن كل آية من القرآن كعصا موسى، تفجر الماء أينما ضربت، وتفتح من كل شيء نافذة على الصانع الجليل وتعرّف به[٢٦].

إن الفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث تسبب في سريان حمى مدهشة في البشرية، وعرضها للغضب الإلهي، وكلما توسعت قابلية التلقين والنقد توسع ذلك الطاعون[٢٧].

وإذا ثبتت كل هذه الصفات للفلسفة الغربية فكيف يمكن أن نخترق هذه الفلسفة لتحل الفلسفة الإسلامية مكانها؟ ومتى يكون ذلك؟ وما هي السبل الكفيلة بتحقيق ذلك؟ كل هذه أسئلة تتطلب جوابا من المنظور النوري، وإلا فستكون معوقات أمام طرح البديل الحضاري الإسلامي أو الدعوة إليه.

ولا بدّ أن نبيّن أن هذا الهجوم النوري الصاعق على الفلسفة، وتلك الصفعات القويّة التي وجّهها إليها ليس ضد الفلسفة على إطلاقها، وليس له معها أزمة معينة، إنه هجوم على نوع خاص من الفلسفة، وهو ذلك النوع السّام المضرّ منها، الذي أصبح وسيلة للإلحاد والتردّي في الضلالة، وساق الحياة إلى السقوط في هاوية المستنقع الآسن للفلسفة الطبيعية، وجر الإنسان إلى الغفلة والضلالة بالسفاهة واللهو، وليست الفلسفة على إطلاقها هي المقصودة بالهجوم؛ لأن المحكمة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك[٢٨].

يقول النورسي: إن محاولة الغرب إسناد محاسن المدنية إلى النصرانية التي لا فضل لها فيها، وإظهار ا لتدني والتقهقر قرينا بالإسلام الذي هو عدو له، ما هو

---

(٢٦) النورسي، الكلمات، ص: ٥١٤ - ٥١٥

(٢٧) النورسي، المكتوبات، ص: ٦١٣

(٢٨) النورسي، الملاحق، ص: ٢٨٦

إلا محاولة يائسة مهزومة، وهو دليل على دوران المقدرات بخلاف دورتها، وعلى قلب الأوضاع[٢٩]. واختلال الموازين والمقاييس، ولكنه مع ذلك وضع مؤقت.

والنتيجة التي يريد أن يصل إليها النورسي، ويوصل إليها الآخرين، هي: أن الإسلام هو دين السلام والأمان[٣٠]. وأن الحقائق التي جاء بها الإسلام حقائق خالدة معجزة لا يمكن التوصل إليها بطريق العقل، والأولى للبشرية والأزكى لها أن تتخلّى عن العناد والاستكبار، وتنظر في الإسلام نظرة موضوعية أمينة.

وهذا هو الروح العام الذي يسري في اتجاه الأستاذ الإمام محمد عبده وموقفه من الفلسفة عموما، وقد عبّر تفسير المنار عن هذه الروح، ودليل ذلك: رفضه لنهج الفلسفة الحاضرة التي تحث على فعل الخير لمجرد أنه خير، بينما الباعث على فعل الخير في نظر الدين هو الوصول إلى الكمال الإنساني، وابتغاء ما عند الله تعالى. فالدين أكمل من الفلسفة وأعظم[٣١].

ويبيّن سنة الله تعالى في خلق الإنسان مريدا مختارا حاكما على نفسه، وعلى الطبيعة المحيطة به.. فهو مربي نفسه ومربي الطبيعة، وأن في هذا الكلام نسفا لأساس جبرية الفلسفة الأوروبية الحاضرة، بعد نسف أساس جبرية الفلسفة الغابرة[٣٢].

لكن هذا الاتجاه ليس معاديا للفلسفة على إطلاقها؛ فادخال الفلسفة إلى الدين بغير عقل ولا بيان هو عين الجدل بالباطل والهذيان[٣٣]. أما ما أيّد الدين والحكمة وعمّق مفاهيمه في النفوس فذلك عمل مطلوب.

---

(٢٩) النورسي، المكتوبات، ص: ٦٠٦

(٣٠) النورسي، الكلمات، ص: ٨٦٣

(٣١) رضا، تفسير المنار، ج٥، ص: ٤٠٧ - ٤٠٨

(٣٢) نفسه، ج٥، ص: ٤١٤

(٣٣) نفسه، ج٥، ص: ١٠٥

التحذير من تقليد أوروبا

يجد النورسي المجال مناسبا كي يوجّه أبناء أمته، ويسدي إليهم نصحه الخالص؛ ليستيقظوا من سكرة إعجابهم بالغرب وثقافته، فيقول مخاطبا:

يا أسفي! ويا ويل من ضلّ بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية، وياخسارة أولئك الذين يقلدونهم تقليدا أعمى، ويتبعونهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع.

يا أبناء هذا الوطن! لا تحاولوا تقليد الإفرنج! وهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا الشنيع، وعداوتهم اللدودة - للإسلام والمسلمين - تتبعونهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب أفكارهم الباطلة؟ وتلتحقون بصفوفهم، وتنضوون تحت لوائهم بلا شعور؟ فأنتم بهذا تحكمون على أنفسكم وعلى إخوانكم بالإعدام الابدي! كونوا راشدين فطنين! إنكم كلما اتبعتموهم في سفاهتهم وضلالهم ازددتم كذبا وافتراء في دعوى الحمية والتضحية؛ لأن هذا الاتباع استخفاف بأمتكم، واستهزاء بملتكم(٣٤).

إن أوروبا اثنان:

أحدهما: نافع للبشر باستفادته من الدين العيسوي والمدنية الإسلامية. أظهر بإحسان الله ما يستريح به البشر في هذه الحياة.

والثاني: خالف الأديان السماوية، واستند على الفلسفة الطبيعية المادية، وغلبت سيئات المدنية حسناتها، وصارت سببا لمشقة أكثر البشر وشقاوتهم، فإني أخاطب هذا القسم الثاني(٣٥).

---

(٣٤) النورسي، المثنوي، ص: ٢٦٨ - ٢٦٩، ٢٧٢، وانظر: اللمعات، ص: ١٨٤

(٣٥) نفسه، ص: ٢٦٨، من المفيد: أن أنبه أن النورسي قد توصل إلى هذه الحقائق وتبنى هذا الموقف من المدنية الغربية منذ بدايات تأليفه البحوث والرسائل، وكثير من رسائل المثنوي العربي النوري قد طبعت قبل المرحلة الثانية التي تشكلت في شخصية سعيد الجديد، أي قبل عام ١٩٢٦، وفي إشارته إلى أوضاع حسنة في المدنية الحديثة موضوعية وأمانة اتصف بهما النورسي.

ولقد كان للشيخ محمد عبده من قبل صرخات ونداءات إلى أبناء أمته كي تتيقظ على مصابها، وتحذر من تقليد الغرب، فيقول - موجها الخطاب إلى أمراء زمانه الذين رموا أنفسهم في أحضان المستعبد المستبد، وركنوا إليه وقلدوهم أرقى المناصب، وولّوهم على شؤونهم الخاصّة-:

ألا أيها الأمراء العظام، ما لكم وللأجانب؟ ولم تبق ريبة في أمرهم! إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها، سارعوا إلى أبناء أوطانكم، وإخوان دينكم وملتكم، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم، تجدوا فيهم خير عون، وأفضل نصير. اتّبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه، كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم؛ كيلا تضلّوا، ويهوي بكم الخطل إلى أسفل سافلين، ألم تروا؟ ألم تعلموا؟ ألم تحسّوا؟ ألم تجربوا؟ إلى متى؟ إلى متى؟ إنا لله، وإنا إليه راجعون![٣٦].

ويجعل الأستاذ الإمام تقليد السياسيين للإفرنج سببا في تخلف الأمّة، فيذكر أن الذين أوقعوا الأمّة في التخلّف هم الحكام المستبدون، والزعماء المترفون، والمرشدون الجاهلون[٣٧].

ولقد حدّد سرّ ضعف الدولة العثمانية وبيّن ما يصلح لها اتباعه، وأنحى باللائمة على علماء الدين الذين لا يفقهون معنى للإصلاح المدني، أما السياسيون فقد كانوا مفتونين بتقليد الإفرنج في كل شيء. وأكبر ما وجّه الأستاذ النظر إليه: فساد التربية، وإهمال التعليم الديني، وحلول التعليم التبشيري مكانه[٣٨].

لقد كان الأستاذ الإمام ينظر إلى أوروبا وفلسفتها بعين بصيرة، ويستحسن من أنظمة ومزايا هذه الفلسفة ما يوافق نص القرآن، ويتماشى مع تعاليم الإسلام. وعملية التوفيق كانت واحدة من أهم وسائله في تحقيق النهضة الإسلامية.

---

(٣٦) انظر: رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ٣٠١. وتفسير المنار، ج٤، ص: ٨٣ - ٩٠

(٣٧) نفسه، ج١، ص: ٣٨٣

(٣٨) نفسه، ج١، ص: ٤١٥

ولقد كان لزيارته إلى أوروبا أثر في تكوّن شخصيته الإصلاحية، ووضوح منهج تفكيره. فقد نصّ هو نفسه على أن هذه الزيارات زادته بصيرة، وأمدّته بقوة من الأمل في إصلاح أحوال المسلمين، فما من مرة ذهب فيها إلى أوروبا إلا وتجدّد فيها الأمل عنده في تغيير حال المسلمين إلى خير منها، وذلك بإصلاح ما أفسدوا من دينهم، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم، وامتلاك ناصيتها بأيديهم، دون أفراد ظلمتهم.

يقول: هذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عندما أعود إلى دياري لكثرة ما ألاقي من العنت، وشدة ما أصادف من المصاعب، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم، وشدّة عداوتهم لأنفسهم، وقوّة رغبتهم في تمكين ظالميهم من رقابهم، وحبّهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، لكني متى ما عدت إلى أوروبا ومكثت فيها شهرا أو شهرين تعود إليّ تلك الآمال، ويسهل عليّ تناول ما كنت أعدّه من المحال[٣٩].

ولذلك كان يجعل في أوروبا قدوة، بل محفّزا للمسلمين إلى النهوض، واللحاق بركب المدنية، ومن الأمثلة التي تدلل لذلك:

أ - لقد استحسن الأستاذ الإمام حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها، والحرية التامّة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها، وأعضاء نوابها ومجالسها، وما شاكل ذلك[٤٠]. قال: لكن هذه القوانين التي تسير عليها حياة أمريكا السياسية لا تصلح في بلادنا بسبب اختلاف عقلية شعوبنا ومنهج تفكيرها، فمثل هذه الحرية قد يساء فهمها واستغلالها فلا تؤدي عندها إلى النتيجة نفسها. لقد بيّن أن أرباب الأفكار منّا الذين يرومون أن تكون بلادنا - وهي هي - كبلاد أوروبا - وهي هي - لا ينجحون في مقاصدهم، ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح، فلا يمرّ زمان قريب إلا

(٣٩) نفسه، ج١، ص: ٨٤٦ - ٨٤٧

(٤٠) نفسه، ج٢، ص: ١٢١ - ١٢٢

وقد بطل المشروع، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان. فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية[٤١].

ب - وحتى نعرف حقيقة ما يدور حولنا يرى الأستاذ الإمام ضرورة تعلم إحدى اللغات الأوروبية، فذكر أن العالِم المسلم لا يمكنه خدمة الإسلام من كل وجه يقتضيه إلا إذا كان متقنا للغة من اللغات الأوروبية، تمكنه من الاطلاع على ماكتب أهلها في الإسلام من مدح وذم، وغير ذلك من العلوم[٤٢].

كيف لا، وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين في جميع أقطار الأرض! وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم؟ أو للخلاص من شرّ الشرار منهم؟[٤٣].

وفي مجال الإصلاح اللغوي والاهتمام بلغة القرآن يدعو إلى أن نحذو حذو الفرنسيين في تأسيس المجامع اللغوية لوضع المعاجم، وتاريخ تطور اللغة، وما دخل فيهما من اصطلاح ومعرب[٤٤].

ج - في حديث للأستاذ الإمام عن «المنتديات العمومية وأحاديثها» أشار إلى أن منتديات أمم أوروبا يدور الكلام فيها على محور أفكارها، وأن اجتماعاتهم تنعقد للمداولات في قضاياهم المهمّة، وفي شؤون مصالحهم العامّة بينما منتدياتنا العمومية يكثر فيها اللغط والقيل والقال، مما هو عقبة في طريق تقدمنا، وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية، وحوافز دون الوصول إلى محجّة الرشاد، وانتهاج خطة السداد[٤٥].

د - يدعو الأستاذ الإمام إلى الوحدة الإسلامية الشاملة، وقد جعل الألمان

---

(٤١) نفسه، ج٢، ص: ١٢٢ - ١٢٣

(٤٢) نفسه، ج١، ص: ٩٢٧

(٤٣) عمارة، الأعمال الكاملة، ج٢، ص: ٣٢٩

(٤٤) نفسه، ج٣، ص: ١٨٩

(٤٥) نفسه، ج٢، ص: ٤٢ - ٤٣

قدوة في وحدتهم الوطنية مع اختلاف مذاهبهم الدينية؛ فأي مانع يمنع من وحدة إيران والأفغان!! وإن الخلافات فيما بينهم أقل من الخلافات بين شعبي ألمانيا[٤٦].

هـ - ويدعو المسلمين إلى الاستمساك بدينهم كما استمسك بسمارك بدينه عن يقين وقناعة، إن هذا الرجل العظيم كان يعتقد أن عظائم أعماله إنما كانت من مظاهر إيمانه، وإن الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى ما لم يدركه فيه مفاخر، ولم يكاثره مكاثر[٤٧].

ز - إشادته بتسامح الإنجليز في سياستهم، وأن الأمّة الإنجليزية هي الأمّة المسيحية الوحيدة في أوروبا التي تقدر التسامح حق قدره. وبيّن أن الإسلام السليم هو أستاذ الإنجليز، وعنه أخذوا هذه الخلّة. ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين! ويوضّح هذا المعنى ببيان أن أوروبا قد تأثرت بالإسلام كثيرا في ثورتها الإصلاحية ضد الكنيسة[٤٨].

ح - ومن القضايا التي أثارها الأستاذ الإمام في دعوته إلى التوفيق بين ما عندنا وبين الغرب: تنبيهه على وجود «مصالح مشتركة» بين الفريقين. ففي نقده لسياسة الإنجليز في التعليم في مصر يقول: ليت شعري، ماذا يربح الإنجليز من التمادي في ترك هذا الاعتقاد راسخا في النفوس؟ - يقصد اعتقاد الرأي العام المصري من سياسة الإنجليز في التعليم التي حدّت من نشر التعليم في الأمّة، وحصرت التعليم العالي في أضيق الدوائر - وإذا كان ثمّة أمر يصح أن يتلاقى فيه الطرفان، ويكون قاعدة للاتحاد، فإنما هو التعليم العام؛ إذ لا يمكن أن يوجد تناقض بين مصلحة الإنجليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد. فمن أراد استدرار ما بمصر من المنافع والخيرات فسبيله في ذلك أن يعنى بتعهد ما فيها من موارد الثروة، وأن يبدأ

---

(٤٦) رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ٣١٦

(٤٧) نفسه، ج٢، ص: ٣٨٠، وانظر: الأعمال الكاملة، ج٣، ص: ٥٠٧

(٤٨) عمارة، الأعمال الكاملة، ج٣، ص: ٣٦٦ - ٣٦٧، رضا، تفسير المنار، ج١، ص: ٢٥٠

بالإنسان، بكل ما فيه من معاني الإنسان، فلا بدّ من امتزاج العنصرين الأوروبي والوطني، وأخذهما على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يدا بيد. ولعمري إن الإنجليز ليسيئون إلى أنفسهم إذا أوهنوا الأهلين، وأرخصوا من قيمتهم، وصغروا من شأنهم، فإنما مصلحتهم في أن يكون أبناء هذا الوطن أعزّاء أحرارا، فإن موارد الثروة والخير للإنجليز منوطة بما يصيبنا من ثراء ورخاء(٤٩).

وفي عرض ردّه على «هانوتو» الذي اتهم الإسلام بجمعه السلطتين الدينية والسياسية في شخص واحد، وقرر أن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت بين السلطتين، يوضّح الأستاذ الإمام مفهوم السلطتين، وأنهما في الإسلام غيرهما عند الكنيسة، ويدعو هانوتو بعد ذلك ليكون عونا للمسلمين على تعضيد الخلافة في البلاد الإسلامية الفرنسية إذا وجد فيهما من يقوم بها، وضمن عند ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين، فإن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين سابقوا الأوروبيين في اكتساب العلوم، وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم(٥٠).

هذه الأمثلة العديدة التي حاول أن يلفت نظر المسلمين إليها هي أمثلة انتقائية تسعف المنهج التوفيقي الذي اتخذه سبيلا للإصلاح والنهضة الحضارية، أعني التوفيق بين ما عند المسلمين اليوم وبين حضارة أوروبا.

إن الأستاذ الإمام يريد نهضة تفوق نهضة أوروبا مبنية، على ضوء تعاليم القرآن وهداياته، وما توصلت إليه أوروبا هو محفز لنا؛ لأن القرآن قد أجمل الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا(٥١).

---

(٤٩) عمارة، الأعمال الكاملة، ج٣، ص: ١٨٥ - ١٨٦

(٥٠) نفسه، ج٣، ص: ٢٥٠

(٥١) رضا، تفسير المنار، ج١، ص: ٢٣

إن ما توصلت إليه أوروبا - في نظر الأستاذ الإمام - من معرفة واختراع: الكهرباء، والتلغراف، والهاتف، . . . كل هذه المخترعات جديرة - حقا - بعارفي كتاب الله، وتتطلبها روح هذا الكتاب[٥٢].

ويحث المسلمين ويدعوهم إلى مباراة أوروبا في صنع البنادق والمدافع والسفن والآلات الحربية والبرية والهوائية. ويتوقف ذلك كله على البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية، فهي واجبة على المسلمين في هذا العصر؛ لأن الواجب من الاستعداد العسكري لا يتم إلا بها[٥٣]. ويدعو إلى الأخذ بعلم النفس والتاريخ وتقويم البلدان والاجتماع والأخلاق والسياسة ولغات الأمم ووجوب معرفتها[٥٤].

إن في بعض محاولاته التأويلية العقلية، بل في المنهج العقلي الذي سلكه في فهم القرآن عموما بيانا لما للعقل من شأن وقيمة في عملية التحرر من التقليد الذي سبب تخلف مدنيتنا. وبيانا للدين الصحيح الذي أنزله الله مبنيا على العقل. ومن أجل ذلك أوّل الأستاذ الإمام نصوصا من القرآن خرج بها عن مدلولات اللغة؛ مثل تأويل الجن والطير الأبابيل توضيحا لهيمنة القرآن وسبقه، بل وتفوقه على ما توصلت إليه أوروبا في ميدان العلم.

إنه مهما يكن القصد الذي دفع الأستاذ الإمام لمثل هذه التأويلات؛ فالخروج عن مدلولات اللغة في أيّ تأويل لآيات القرآن هو نهج غير قويم، ومنهج غير مستقيم.

رابعا - في مجال التربية والتعليم

يعدّ التعليم في نظر الأستاذ الإمام هو الطريق الوحيد لإحداث عملية النهضة،

---

(٥٢) إجنتس جولد زيهر؛ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار(١٩٨٣)، دار إقرأ، بيروت. ص: ٣٨٣

(٥٣) رضا، تفسير المنار، ج٤، ص: ٣١٨

(٥٤) نفسه، ج٤، ص: ٤٠ - ٤٢

ففي عرض حديثة عن الإسلام - الذي يحاول كل من المسلمين والمستشرقين البحث في مستقبله - يرى الأستاذ الإمام أن ليس أمام المسلمين إلا أحد طريقين:

الأول: إما الأخذ بأسباب القوّة والثروة من طريق العلوم الكونية بباعث الدين والقرآن، ولا يكون هذا إلا إذا كانوا عارفين بهذه العلوم حقّ المعرفة، مع الحكمة والسياسة وحسن التوسل للتوصل.

الثاني: إما الوقوع في أسر أوروبا واستعبادها(٥٥).

ولذلك لا بدّ من هيمنة تعاليم القرآن وهداياته على العملية التربوية وتوجيهها، ولتستقل بذلك عن الهيمنة الأجنبية. ونرى الأستاذ الإمام من أجل ذلك يشنّ حملة عنيفة على أولئك الذين يرسلون أبناءهم إلى مدارس التبشير الغربية المنتشرة في بلاد المسليمن، بوصفها خطرا على عقيدة أبناء المسلمين(٥٦).

وقول الشيخ رشيد رضا: إن جميع مدارسهم ومستشفياتهم لم تنشأ إلا لأجل نشر دينهم، وجذب الناس إليه، والمسلمون لا يزدادون إلا غفلة وعمي عما يكيد لهم الكائدون، ولا يزالون يلقون بأفلاذ أكبادهم إلى مدارس الدعاية والتبشير(٥٧).

ويصف ما عليه حال الناس من ضعف في الدين، ومخاطر ذلك على العملية التربوية في ظل الاستعباد الغربي فيقول: هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجانب سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين، واستمالة أهوائهم إلى الأخذ بدسائسهم والإصاخة إلى وساوسهم، فخلبوا عقول عدد غير قليل. ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الإسلامية حتى العثمانية، لتضليل المسلمين، فلا نرى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأمريكان أو اليسوعيين، أو

---

(٥٥) رضا، مجلة المنار، ج٤، ص: ٤٤٦ - ٤٥٣

(٥٦) انظر رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ١٦٦ - ١٦٨، ٤٦٤ - ٤٦٥ وعمارة، الأعمال الكاملة، ج٣، ص: ٦٣، ٧٦، ١٠٣، ١١٦

(٥٧) نفسه، ج٢، ص: ١٧١

العزارية، أو الفرير، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الأوروبية، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس. فلا تنقضي سنوا تعليمهم إلا وقد خوت قلوبهم من كل عقد إسلامي، وأصبحوا كفارا تحت حجاب اسم الإسلام، ولا يقف الأمر عند ذلك، بل تعقد قلوبهم على محبّة الأجانب، وتنجذب أهواؤهم إلى مجاراتهم، فيصيرون بذلك ويلا على الأمّة، ورزية على الدولة. ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم ما يجيدون به تربية أولادهم(٥٨).

ويدعو الأستاذ الإمام إلى ملاحظة نظام التربية والتعليم في بلاد الإنجليز، وكيف هو مبني على الاستقلال، والحرية الشخصية، وكرامة النفس الإنسانية، وبهذه الأسباب كانوا أكثر استفادة من الإصلاح الديني الذي زلزل عرش البابوية، وبهذه الأسباب استولت على زهاء خمس البشر(٥٩).

إن هذه الأسس التي مكنت الإنجليز من هذه القوّة هي أسس قرآنية قد بيّنها واحد من علماء الإسلام هو ابن خلدون... فما أرقى هذا الدين، وما أسمى هديه! وما أضل من التمسه من غير كتابه الحكيم، وسنّة نبيه عليه الصلاة والسلام(٦٠).

ويدعو أيضا الأغنياء من أبناء المسلمين إلى الاعتبار بحال الجمعيات الأوروبية التي لم يكن أعضاؤها إلا الزارعين والصانعين والتجار، ويبلغ دخل الواحدة منها ملايين الجنيهات، كيف يُصرف ذلك كله في بثّ المعارف والعلوم، واتساع دائرة الصنائع والفنون، وتقوية روح التربية الحقّة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلّى أبناؤها بحلاها(٦١).

أما النورسي فقد توجّه بكل همّته إلى التعليم بوصفه الوسيلة الناجعة في

---

(٥٨) نفسه، ج٢، ص: ٥٠٧

(٥٩) رضا، تفسير المنار، ج٥، ص: ٢٨٢

(٦٠) نفسه، ج٥، ص: ٢٨٤ - ٢٨٥

(٦١) رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ١٤٩

التربية، فدعوته - فترة طويلة من الزمن - إلى إنشاء جامعة الزهراء لتربية العقل المسلم هو أهم جهد يذكر له في هذا الميدان، أضف إلى ذلك جهوده العملية في إنشاء ذلك التنظيم الذي أخذ من التربية الإسلامية العملية بنصيب وافر.

لقد رأي النورسي أن المزج بين العلوم الدينية والعلوم الحديثة ضرورة تقتضيها عملية إصلاح منهج الفكر الإسلامي الحديث، والهدف من ذلك هو تخليص المحاكمات العقلية من ظلمات السفسطة الحاصلة من أربعة أنواع من الأقيسة التمثيلية الفاسدة، وإزالة المغالطة التي تولدها الملكة المتفلسفة على التقليد الطفيلي(٦٢).

فإصلاح منهج التعليم: هو إصلاح لمنهج التربية الشاملة: تربية العقل، وتربية الروح. يؤكد النورسي هذا المعنى بقوله: «ضياء القلب العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، وبامتزاجهما تتجلّى الحقيقة، فتتربّى همّة الطالب، وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى، والشبهات في الثانية»(٦٣).

ولقد سار النورسي على درب الأستاذ الإمام في إعطاء التربية الاجتماعية أهمية قصوى. فتراه يبيّن آثار التربية الإسلامية في ميدان الحياة الاجتماعية، ويقارن بينها وبين التربية الأوروبية، ففي الزواج - مثلا - يظهر مدى عمق التربية الإسلامية إذ هو قائم على المحبّة والمودّة والرحمة إلى الأبد، بينما يحصر الزوج حبّه لزوجته في ظل التربية الأوروبية في فترة شبابها. فتمضي الحياة في تعب وشقاء!(٦٤).

---

(٦٢) يشير النورسي هنا إلى الفلسفة الغربية وأثرها على العلوم، وهذه الأقيسة هي: قياس الماديات على المعنويات، واتخاذ ما تقوله أوروبا حجّة في المعنويات؛ لأنها ماهرة في الماديات. ورفض أقوال العلماء - ممن لم يطّلع على بعض العلوم الحديثة - في العلوم الدينية. والاعتماد على النفس والاعتداد بها في الدين، لاغترارها بمهاراتها في العلوم الحديثة. ورابعا: قياس السلف على الخلف، والماضي على الحاضر، ثم شن الهجوم، وتقديم الاعتراضات الباطلة. انظر: النورسي، صيقل الإسلام، ص: ٤٢٨

(٦٣) نفسه، ص: ٤٢٨

(٦٤) النورسي، الملاحق، ص: ٣٤١، وانظر: اللمعات، ص: ٣٠٩ - ٣١١

ويقارن نسبة الأولاد البارّين بوالديهم في ظل التربية الإسلامية، وبين نسبتها في ظل التربية الأوروبية التي لا تتجاوز على أبعد التقديرات العشرين بالمائة[٦٥].

ويجعل للتربية الإسلامية شأنا مهمّا في مواجهة التيارات الملحدة وصدّها، كالشيوعية وغيرها[٦٦].

ولا تكون - ولن تكون للتربية الإسلامية - فاعلية وأثر في واقع العمل التربوي إلا بالإخلاص، فهو أهم أساس من أسسها[٦٧]، ويستشف من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أسسا أخرى، فهذان الاسمان الجليلان يشيران إلى أساسين من أسس التربية، وهما: جلب المنافع، ودفع المضار[٦٨].

لقد حاول النورسي أن يتبنى منهجا عمليا في التربية الإسلامية، يحفظ قوام الشخصية المسلمة واستقلالها وأصالتها، ويناسب طبيعة المواجهة مع الحضارة الأوروبية وفلسفتها التربوية. وهذا يؤكد واقعية منهج النورسي في الميدان التربوي على وجه متكامل.

خامسا - في مجال الاقتصاد

لقد وقف الأستاذ الإمام للنظرية الاقتصادية الرأسمالية الغربية، وأفتى بأن روح الإسلام ضد الفلسفة الفردية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي في قضية ساخنة واجهتها الساحة المصرية يوم أضرب عمال التبغ عن العمل. وكانت الفتوى التي أصدرها بذلك قد أثارت حكومة الإنجليز[٦٩].

---

(٦٥) نفسه، ص: ٣٤٢

(٦٦) نفسه، ص: ٣٤٦

(٦٧) النورسي، اللمعات، ص: ٣٠٩

(٦٨) النورسي؛ الإشارات، ص: ٢٨

(٦٩) محمد عمارة؛ الإمام محمد عبده: مجدّد الدنيا بتجديد الدين (١٩٨٥)، دار الوحدة، بيروت. ص: ١٤٠ - ١٤١

ويرفض الأستاذ الإمام مبدأ التعامل بالربا، ويبيّن أضراره والأخطار الناجمة عنه، ويرفض الزعم القائل: إن تأخر المسلمين يرجع إلى عدم أخذهم بالربا، ويقرر أن المدنية الإسلامية لا يمكن أن تبنى على النظام الربوي، فقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا ركنا من أركانها، فكانت خير مدينة في زمنها. فمنع الربا فيه جمع بين المدنية والفضيلة، وهو أفضل هداية للبشر في حياتهم الدنيا(٧٠).

وتمخض رأي النورسي عن رفض كامل للفلسفة التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي، وبين أن المجتمع الغربي يئن من جراحاته الاقتصادية بسبب المقولات الجائزة التي تنظم حياته، مثل: مقولة: «إن شبعت أنا فلا عليّ أن يموت غيري»، ومقولة: «اكتسب أنت لآكل أنا»، ويبيّن أن القرآن الكريم قد اقتلع المقولتين من جذورهما، وأورد قضية إيجاب الزكاة ردّا على المقولة الأولى، وتحريم الربا ردّا على المقولة الثانية، وهما - وجوب الزكاة، وتحريم الربا - البديل الاقتصادي القرآني المقترح(٧١).

والنتيجة:

أن النورسي يثني على الحضارة الغربية لا بوصفها حضارة قيم وأخلاق ومثل عليا، بل بوصفها حضارة مرافق وخدمات. ولقد وقف على أسس الضلال في الحضارة الغربية، ولفت النظر إليها، وكان صنيعه راقيا بتوظيفه إعجاز القرآن في الوقوف على أرضية الصراع والمواجهة.

أما عملية التوفيق فهي عنده مرفوضة كلية، فالغرب ليس قدوة في شيء، ويستحيل التعايش مع فكره، بسبب قيام هذا الفكر على الدعم السياسي والعسكري له في البلاد الإسلامية. ثم إن هذا الفكر يعدّ غزوا تغريبيا قد ظهرت آثاره العملية في تركيا في العديد من الجوانب بصورة مدهشة

---

(٧٠) رضا، تفسير المنار، ج٤، ص: ١٢٨ - ١٢٩، ج٣، ص: ١٠٦ - ١٠٩

(٧١) النورسي، الكلمات، ص: ٤٧٣ - ٤٧٤

ومزعجة، في جوّ يخيّم عليه الجهل العام بدين الإسلام، فكيف يصح التعايش معه، أو التوفيق بين ما عندنا وما عندهم من حضارة!!

أما الأستاذ الإمام فقد كانت مجاراة المدنية الأوروبية همّا من همومه، ومن هموم مدرسته فيما بعد[٧٢]. وقد اتضح موقفه من المدنية الغربية بصورة سؤال هو: كيف يمكن أن نلحق أو نحقق ما توصل إليه الغرب من محاسن ومزايا وصناعات وآلات... وكيف يمكن التعايش مع هذه المدنية؟

ولم تأخذ الإجابة على هذا السؤال عند الأستاذ الإمام شكلا محدّدا، ولم تنبن على منهجية معيّنة، بل ظلت عائمة مفتقرة إلى ذلك الشكل وتلك المنهجية. وبعبارة أخرى يمكننا القول: لقد حاول الأستاذ الإمام على ضوء مقررات القرآن إحداث عملية التوفيق تحقيقا لعملية النهضة.

ولئن استشهد الأستاذ الإمام بشخصيات غربية مثالية، فإن النورسي كان كثيرا ما يستشهد بشخصيات إسلامية عملاقة في نظره، مثل جلال الدين الرومي، وابن عربي، والسرهندي، وسعد الشيرازي، عبد القادر الجيلاني، والشعراني...، وتبيّن أثر نزعة صوفية عند الرجل. وإذا أثنى النورسي على شخصيات أوروبية فلموقفها من الإسلام، أو لنزاهة عدالتها، أو لشهرتها العلمية الموافقة للحق.

وإذا كان النورسي قد وقف على أسباب الضلال في حضارة أوروبا فإن الأستاذ الإمام قد وقف على أسس التقدم في المدنية الغربية غير غافل عن عيوبها الكبيرة. وتمنى أن ينهض المسلمون بمثل تلك الأسباب. وبيّن أن اختلاطنا بالأمم الأوروبية علمنا أسباب الضعف ووسائل القوّة[٧٣]. وبيّن أن أسباب قوّة الغرب ترجع إلى سبعة أمور، هي العلم، والأدب، والتجارة، والصناعة، والعدل، والدين، والسلاح. وسبب ذكر الدين أن «هانوتو» وزير خارجية فرنسا لا ينكر أن أوروبا تعتمد على الدين في سياستها الاستعبادية[٧٤].

---

(٧٢) رضا، تفسير المنار، ج٥، ص: ١٨٩

(٧٣) رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج٢، ص: ١٤٧

(٧٤) نفسه، ج٢، ص: ٤٥١

لقد كان الشيخ محمد عبده في معاملاته مع الأوروبيين غاية في جمال المحاضرة، وحسن الملاطفة، وكان نديما حلو الفكاهة، جليسا ساحر المحاورة[٧٥].

وفي وصف جريدة «دوكير الفرنسي» ما يصوّر اتجاه محمد عبده، حيث قالت: «كان الشيخ محمد عبده واقفا على حضارة الأمم الحديثة، وتاريخ الأمم القديمة، ولهذا أوقف جزءا عظيما من حياته على تحقيق فكرة إصلاح الأحوال في الأزهر، وإصلاح التربية الإسلامية برمتها.

وكان يعتبر من الإصلاح الضروري أن يصل بين الشرق والغرب، وبين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، وكانت هذه الحقيقة دائما تجول في نفسه، وهي أن الأوروبيين يجهلون حقيقة الإسلام، والمسلمون عاجزون عن تفهيمهم حسن عقيدتهم؛ لأنهم أنفسهم على غير يقين فيها، لا من جهة العلم، ولا من جهة العمل، ولا من جهة الأخلاق»[٧٦].

إن حركة ا لنورسي في وجه المدنية الغربية هي حركة قرآنية واقعية، تأخذ في مفهومها منهج الإخوان المسلمين، الذين عدّهم النورسي ممثلين للاتحاد الإسلامي في البلاد العربية، وطلاب النور تمثله في الأناضول. إن الإخوان المسلمين وطلاب النور يشكلان صفين مترافقين ومتوافقين ضمن حزب القرآن، ودائرة الاتحاد الإسلامي المقدسة[٧٧].

لقد مثلت حركته محاولة اجتهادية فردية متحصنة ضد أي قرصنة غربية بسلاح الإيمان والعقيدة، وإذا كنا اليوم عاجزين عن المواجهة فإن العودة إلى تربية الإيمان والعقيدة سيجعل بالإمكان وجود قدرة كافية على المواجهة مستقبلا في المنظور النوري الذي ضيّق مجال الانفتاح على المدينة الغربية.

أما حركة الأستاذ الإمام فقد كانت حركة شكلت فيها مرجعية الاجتهاد العقلية

---

(٧٥) نفسه، ج٣، ص: ١٥٤، «من وصف صحيفة ليجيت الفرنسية المصرية».

(٧٦) نفسه، ج٣، ص: ١٦٦

(٧٧) النورسي، الملاحق، ص: ٣٣٧

دعاماتها الرئيسة، فاتسمت بالانفتاح على العالم الآخر - وخاصّة أوروبا - ومحاولة اختراقه. وبناء المدنية الإسلامية الحديثة على ضوء الهداية القرآنية ومقررات العلم الحديث[٧٨]. أضف إلى ذلك أن حركة الأستاذ الإمام الفكرية والإصلاحية قد تركت بصمات واضحة على جميع الحركات الإسلامية، ومنها حركة النورسي فيما بعد. ولكل حركة إيجابياتها الكثيرة، وأحوالها التي ناسبت الأوضاع القائمة في كل من البيئتين التركية والمصرية.

لقد ترجم ا لنورسي فكره إلى عمل عبر ذلك التنظيم الذي يضم مجموعات التلاميذ النجباء، بينما استعاض الإمام بالوظائف الهامّة التي مكنته من رؤية بعض ثمار جهوده. وليؤول كل شيء بعد وفاته إلى حد الدعوة إلى الإصلاح بدلا من مباشرة عملية الإصلاح نفسها.

وانبثق كلام النورسي في موقفه من المدنية الغربية من وجدان مفعم بالإيمان، أما الأستاذ الإمام فقد كان كلامه أقرب ما يكون إلى العقل، وأرشد ما يكون إلى الفكر المبني على روح الهداية القرآنية، إنه لم يركن إلى عاطفة، بل لا مجال للعاطفة في مثل هذا الموقف. وليس بإمكانه أن يتخذ غير هذا الموقف، فالدعوة إلى التغيير السياسي فشلت، والدعوة إلى التحرر بالعمل العسكري ليست بمقدور أحد، والإنجليز يفرضون ما يريدون على خديوي مصر، وهو فضلا عن ذلك رهن إشارتهم وطوع بنانهم.

لكن هذه المحاولات التوفيقية التي دعا إليها زعماء الإصلاح - وعلى رأسهم الأستاذ الإمام - بين ما عندنا وما عند الغرب لم تحقق للمسلمين أية نهضة، بل ازداد المسلمون بها ابتعادا عن دينهم، وتخلياً عن أصالتهم، واقتفاء لأثر التقاليد الغربية في نظام الحياة، وتسابقا إلى اقتناء منتجات هذه الحضارة! وإذا كان قد ثبت فشل المنهج التوفيقي وعجزه عن تحقيق النهضة في المجتمعات الإسلامية، فإن على زعماء الإصلاح والفكر المعاصرين أن يكونوا أكثر واقعية في التعامل مع الغرب؛ لأن الغرب لن يسمح بأية محاولة نهضة إسلامية، إنه لا يسمح حتى

---

(٧٨) رضا، تفسير المنار، ج٤، ص: ٣٨٣، ج٢، ص: ٣٣٩ - ٣٤٠

للحكومات التي تدين له بالولاء أن تكون حرّة في نظام اقتصادها، أو صناعاتها أو برامج تعليمها، أو ميزانياتها، أو في تدبير أمر جيوشها. . . ، لذا فإن أقصى ما يمكن أخذه عن عالم الغرب لا ينبغي أن يتجاوز منطوق الحديث الشريف: «الحكمة الضالة المؤمن، أنّي وجدها فهو أحق الناس بها» في أمور الدنيا ونظام الحياة.

وإن ما يستدعي البحث والنظر، ويلفت الفكر: هو أن حركات التحرر السياسية والإصلاحية لم تحقق أهدافها في إحداث عملية التغيير الشامل، والعودة بالشعوب إلى حظيرة الإسلام وتعاليمه السمحة، أو استئناف الحياة الإسلامية على ضوء مقررات القرآن وهداياته. ولم يكن زعماء الإصلاح بتحريضهم الشعوب على الثورة ضدّ الاستعباد والاستبداد الغربي أو الوطني المحلي بقادرين على تحقيق أهدافهم؛ ذلك أن المنهج الذي اتخذوه في الإصلاح كان في معظمه يمثل ردّ فعل على الأوضاع السائدة، والأحداث الجارية، كمثل بيت شبّ فيه حريق، فهبّ أصحابه لإطفاء النار، وإخماد الحريق، في حين أنهم أهملوا بعدم اتخاذهم كافة احتياطات الأمن وأسباب السلامة، وتصرفهم قد يكون هو الحل المناسب لتخفيف أكبر قدر من الخسائر. وإذا كان الوعظ والإرشاد هو الأسلوب الأمثل الذي يتخذه المصلحون أداة للتغيير، وإذا علمنا أن هذا الأسلوب لم يعد له ذلك الأثر في القلوب المتحجرة، والعقول المغلقة، فعندئذ تتطلب عملية التغيير للتي هي أقوم إيجاد منهج فكري أو إطار جامع، تتمكن فيه جميع حركات التحرر من التنفس الطبيعي، وإن الدعوة لتوحيد منهج الفكر هو أحد الأساليب الجادّة التي تتطلبها عملية التغيير. وأرجو أن لا يفهم من هذا أنني أدعو إلى توحيد الآراء والاجتهادات.

فإذا تمّت الخطوة الأولى، وشفعتها خطوة أخرى تتمثل في إيجاد الوسائل - أو استحداثها - التي يمكن بها أن ينقلب القول إلى فعل، وأن يترجم الفكر على أرض الواقع، عندئذ نكون قد أقمنا الحصانة التي تصدّ كل عدوان، وتقف بالمرصاد للأخطار وعاديات الزمان. ولقد نجح المنهج النبوي كل النجاح

بعد تحقق هذين الأمرين: المرجعية الفكرية المسؤولة، والوسائل العملية المشروعة.

لكن عدم وجود المرجعية أو توحّد منهج الفكر أدّى إلى أن تجهض جهود الإصلاح المخلصة من قبل مخلصين - أحيانا - يسيرون على خط فكري آخر، ولذلك لا بدّ من فتح باب الحوار بين جميع التيارات الفكرية الإسلامية، وإزالة كل حواجز العزلة بينها. وإنشاء مبدأ التسامح الفكري بين هذه الحركات، وإذا كان ديننا قد أسس هذا التسامح وأنشأه مع أبناء الأديان الأخرى تحت شعار«التسامح الديني»، فإن من باب أولى أن يسود هذه التيارات مبدأ التسامح الفكري في إطار وحدة مرجعية شاملة.

قائمة المراجع

- جولد زيهر، أجنتس؛ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار (١٩٨٣)، دار إقرأ، بيروت.
- خان، ظفر الإسلام؛ نظرة على ظاهرة الحوار المسيحي الإسلامي، مقالة نشرتها صحيفة الهلال الدولي، ١٦ - ٣٠/ ١١/ ١٩٨٩. العدد الرابع.
- رضا، محمد رشيد؛ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (١٩٧٣)، دار الفكر، بيروت.
- رضا، محمد رشيد؛ مجلة المنار (بلا تاريخ)، مطبعة المنار، مصر.
- عبدالحميد، محسن؛ النورسي متكلم العصر الحديث (بلا تاريخ) سوزلر للنشر، مصر.
- عبدالرزاق، أحمد؛ فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي (١٩٩٥)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة.
- عبده، محمد؛ **الإسلام بين العلم والمدنية** (بلا تاريخ)، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.
- عمارة. محمد؛ **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده (١٩٩٣)**، دار الشروق، بيروت.
- عمارة، محمد؛ **الإمام محمد عبده: مجدّد الدنيا بتجديد الدين (١٩٨٥)**، دار الوحدة بيروت.
- النورسي، سعيد ميرزا؛ **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٩٤)، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي، سعيد ميرزا؛ **صقيل الإسلام**، تحقيق إحسان الصالحي (١٩٩٥)، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي، سعيد ميرزا؛ **الكلمات**، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٢)، دار سوزلر، إسطنبول

- النورسي، سعيد ميرزا؛ **اللمعات**، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٣)، دار سوزلر، إسطنبول.
- النورسي، سعيد ميرزا؛ **المثنوي العربي النوري**، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٨٨)، مطبعة الزهراء، الموصل.
- النورسي، سعيد ميرزا؛ **المكتوبات**، ترجمة إحسان الصالحي (١٩٩٢)، دار سوزلر، إسطنبول.